



تفكيك النسق الفحولي في رواية "روائح ماري كلير" للحبيب السالمي

Deconstructing the masculine discourse in the novel the scents of Marie-claire by habib selmi

د. شهيرة راجع¹

chahira@edu.univ-oran1.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/05 تاريخ القبول: 2024/11/21 تاريخ النشر: 2024/12/20

Received: 05 /10/2024 Accepted: 21/11/2024 published: 20/12/2024

ملخص المقال:

يتناول البحث إشكالية التمثيلات السردية من العلاقات المجنسة إلى العلاقات المؤنسة بين الثقافات، وتهدف هذه الورقة البحثية إلى تفكيك الأنساق المضمرة المتحكممة في الثقافة المهيمنة، وتعرية تحيزات الأيديولوجية، وتقصى أنسجة السرديات البديلة في الإطاحة بالعنصرية الثقافية ودعوتها لمعادلة ثقافية إنسانية. وما توصلت إليه الدراسة أنّ رواية "روائح ماري كلير" للحبيب السالمي شكلت نموذجاً سردياً ثقافياً يقوم على أنسنة العلاقات بين المرأة والرجل، وبين الثقافات، بدل سياسات الجنس التي تقوم على علاقات القوة والعنف. كلمات مفتاحية: النسق الفحولي، السرديات الكبرى، رواية "روائح ماري كلير"، انزياح التمثيل السردية.

Abstract:

The research addresses the problem of narrative representations from gendered relations to humanized relations between cultures. This research paper aims to dismantle the implicit patterns controlling the dominant culture, expose its ideological biases, and investigate the fabric of alternative narratives in overthrowing cultural racism and calling for a humane cultural equation. The study concluded that the novel "The Smells of Marie Claire" by Habib Al-Salmi formed a cultural narrative model based on the humanization of relationships between women and men, and between cultures, instead of gender politics that are based on power relations and violence.

Keywords: The masculine style; the grand narratives; the novel "Marie Claire's Scents"; the shift in narrative representation.

(1) جامعة وهران 01 (الجزائر).

مقدمة:

تنخرط المدونة الروائية للكاتب التونسي الحبيب السالمي من الناحية الدلالية والخطابية في رهانات السرديات البديلة، وهي سرديات تحررية وتنويرية تسعى في ممارساتها الدالة إلى تفكيك الأنساق المضمرة والتحرر من سلطة النسق، فإن الحب كعلاقة إنسانية أصيلة يعوض صور العنف الجنسي الذي هيمن في الرواية الحضارية التي كانت تمثيلات العنف فيها رمزا للصراع فلا يتحقق الإلتحام إلا بالدمار، لكن رواية "روائع ماري كلير" تحدث انزياحات سردية ثقافية بإحلالها مجاز الحب محل مجاز العنف، وتؤكد أن التفاعل يحدث عبر الحياة المشتركة في سياق الانفتاح والخبرات المتبادلة التي يجسدها محفوظ (الشرق) وماري كلير (الغرب).

من هنا طرحنا إشكالية وحاولنا مقارنة إجابات محتملة لها وهي:

- أين تتجلى تمثيلات الانزياح السردية في رواية "روائع ماري كلير" من المجنسن إلى المؤنسن؟ وما هي آليات اشتغال تقويض النسق الفحولي في الرواية؟

يهدف هذا البحث إلى تفكيك النسق الفحولي الذي هيمن على المدونات العربية، والانتقال من تجربة السرديات الكبرى (الأيديولوجيا) إلى تجربة الهشاشة، ومن التاريخ إلى الذات، وما ترتب عنه من تحول في الوعي والمفاهيم ونمط الوجود.

فالسرديات البديلة تتأسس على مراجعة نقدية جذرية لتجربة الماضي، تضع مبادئ السرد الكبير في الإيديولوجيا وفي السلطة موضع تساؤل وتفكيك، في محك خطاب نقض يطرح مفاهيم بديلة هي مفاهيم الصيرورة في مقابل النسق، والذات في مقابل الجماعة، والانتهاك في مقابل الإلتزام، والاختلاف في مقابل الإجماع، والتشظي في مقابل الوحدة، والتخييل/الكتابة في مقابل الأيديولوجيا، والحياة في مقابل النظرية.

1. من السؤال الجمالي إلى السؤال الثقافي

تأسست النظرية السردية في أوائل القرن العشرين في فرنسا، حيث ساهم مجموعة من المفكرين البارزين، مثل رولان بارت وجيرار جنييت وتودوروف وزيفتان، في صياغة أسسها. كان هدفهم الرئيسي هو تحليل النصوص الأدبية من خلال تطبيق مفاهيم اللغة، مما أتاح استكشاف البنية السردية العامة التي تشكل قاسماً مشتركاً بين مختلف الأنواع الأدبية، متجاوزين بذلك الحدود الثقافية والزمانية.

ركزت هذه النظرية على النص ذاته، حيث اعتبرت أنه محور الدراسة، وبالتالي كانت العلاقات الداخلية بين عناصر النص هي محور الاهتمام الأساسي. هذا التوجه البنيوي مكّن الباحثين من تقديم تحليل دقيق ومنظم للنصوص، بعيداً عن المؤثرات الخارجية، مثل السياقات الثقافية والتاريخية التي يمكن أن تلعب دوراً مهماً في فهم السرد.

ومع ذلك، يثير هذا المنهج تساؤلات حول قدرته على تحقيق فهم شامل للنصوص. فبينما يوفر وصفاً دقيقاً لبنية السرد، فإنه قد يغفل العناصر الثقافية والتاريخية الغنية التي تضيف عمقاً ومعنى إضافياً على النصوص. لذا، فإن النظرية السردية، رغم إنجازاتها، قد تحتاج إلى إعادة تقييم تشمل مختلف العوامل التي تسهم في تكوين السرد وفهمه بطرق أعمق وأشمل. بذلك، يمكن القول إن النظرية السردية تمثل خطوة هامة في الدراسات الأدبية، ولكن ينبغي لها أن تتبنى مقاربة أكثر شمولية تأخذ بعين الاعتبار التأثيرات المتبادلة بين النص وسياقه الثقافي والتاريخي.

يمثل الخطاب التعليمي البنيوي، رغم أهميته في تشكيل الأسس النظرية للنقد الأدبي، اتجاهاً قد يقع أحياناً في فخ التجريد، مما يؤدي إلى تجاهل مرجعيته الاستيمية. إن اختزال البنيات السردية إلى هياكل شكلانية يُخالف طبيعة النصوص التي تتسم بالتعقيد، حيث تتداخل فيها عناصر جمالية وأيديولوجية وثقافية تسهم في تشكيل المعنى. من هنا، جاءت السرديات ما بعد البنيوية لتتجاوز هذا النموذج التقليدي، منفتحة على مجموعة متنوعة من النماذج النظرية والمنهجية، مثل المفاهيم ما بعد الكولونيالية والنسوية والرقمية. فقد أدى هذا التحول إلى إعادة التفكير في الطريقة التي تُقرأ بها النصوص الأدبية، بحيث لم تعد محكومةً بمنهجية واحدة، كما كان الحال في السرديات البنيوية، بل أصبحت تعكس تشكيلات نظرية معرفية متعددة تعبر عن أسئلة سياسية وثقافية وتاريخية معقدة. إذ انتقلت هذه السرديات من مجرد ممارسة وصفية للسرد إلى آليات أكثر عمقاً، مثل التأويل والفهم، مستدعية المرجعيات الثقافية والسياقية التي تلعب دوراً محورياً في بناء المعنى. على سبيل المثال، أظهرت السرديات ما بعد الكولونيالية كيف أن الروايات الكولونيالية غالباً ما تحمل في طياتها أنساقاً ثقافية تعكس تمييزات عرقية واستعمارية، مما يُبرز ضرورة الانفتاح على معاني جديدة تتجاوز ما هو سطحي. وبالتالي، فإن تجاوز السرديات ما بعد البنيوية للمنجز البنيوي لا يعني إلغاءه، بل يُشير إلى انطلاقها من إنجازات السرديات البنيوية لتستكشف بشكل أعمق السياقات الثقافية والتاريخية والسياسية التي تؤثر في النصوص، مما يعزز من فهمنا لعلاقات القوة والتاريخ في الإنتاج الأدبي.

شهدت الممارسات النقدية المعاصرة تحولاً ملحوظاً في تناول السرد، حيث انتقلت من إطار السرد البنيوي المحايث إلى فضاءات السرديات الثقافية، مما يعكس تحولاً جذرياً في الفهم النقدي. وقد أسهمت الثورة المعرفية والنقدية التي أطلقتها الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية في إعادة تشكيل هذا المجال، حيث بات السؤال الثقافي يتصدر اهتمامات النقاد، متجاوزاً التركيز التقليدي على الجوانب الجمالية. إن هذا الانفتاح على قضايا معقدة مثل القوة، والهوية، والغيرة، والعنف، والهيمنة، والاختلاف قد حرر السرديات من قيود النموذج البنيوي الثابت، مما أتاح لها استكشاف أبعاد جديدة تتعلق بتأثير السياقات الثقافية والاجتماعية على النصوص الأدبية. كما أفسح المجال أمام استخدام نماذج نظرية ومناهج متعددة، تتضمن التاريخ، والتحليل النفسي، والدراسات الثقافية، وما بعد الكولونيالية، بالإضافة إلى التأويل وعبر الوسائطية. هذا التحول النقدي يتيح رؤية أكثر شمولية تعكس التفاعل الديناميكي بين النصوص الأدبية وبيئتها الثقافية، مما يعزز من عمق فهمنا للسرد باعتباره ظاهرة إنسانية غنية ومعقدة. من خلال هذه المقاربة الجديدة، يصبح النقد الأدبي قادراً على توظيف أدوات تحليل متنوعة تضيء على كيفية تشكيل المعاني وتفكيك العلاقات الاجتماعية والسياسية التي تتجلى في النصوص، مما يسهم في بناء حوار ثري بين الأدب وموضوعاته المتعددة.

لم تعد السرديات الثقافية محصورة في نموذج تحليل واحد، بل تسعى إلى إعادة كتابة التواريخ من منظور نقدي يجسد تحدياً للطبقات ويكشف المسكوت عنه في السرديات السائدة. فهذه المقاربات النقدية تركز على استنطاق سياسات التمثيل واستراتيجيات القوة الإمبريالية، حيث تتضح الآليات التي تُستخدم لإزاحة الآخر وإقصائه من المشهد الثقافي والتاريخي. من خلال تفكيك الأوهام التي تروجها الأيديولوجيات السائدة ونقد الهويات القاتلة، تظهر السرديات البديلة كوسيلة لإعادة تشكيل الفهم الجماعي للتاريخ والهوية. في هذا السياق، يُعتبر السرد أداة استراتيجية فعالة تُستخدم لمواجهة الهيمنة التي يفرضها من يمتلك سلطة السرد والتمثيل، مما يمنح المهمشين القدرة على تمثيل أنفسهم وتاريخهم من خلال طرح سرديات مضادة أو بديلة. هذه السرديات لا تعيد فقط كتابة التاريخ، بل تعيد تشكيل المعنى المرتبط بالهوية الجماعية، مما يُمكن الأفراد والجماعات من تحدي الروايات المهيمنة واستعادة صوته. بالتالي، تسهم هذه المقاربات في تعزيز الحوار الثقافي الغني الذي يعكس تعددية الأصوات والتجارب الإنسانية، مما يزيد من عمق فهمنا للأبعاد الاجتماعية والسياسية في النصوص الأدبية ويعكس التنوع المعقد للتجربة الإنسانية. فالسرديات بوصفها «تشكيل عالم متماسك متخيّل، تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها، وتندغم فيه أهواء، وتحيزات وافتراسات تكتسب طبيعة البديهيّات ونزوعات وتكوينات عقائدية بصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بمتجلياته وخفاياه.. كما يصوغها بقوة وفعالية خاصتين فهم الحاضر للماضي وأنهاج تأويله له {...} وتدخل في هذه الحكاية أو السردية مكونات الدين، واللغة والعرق، والأساطير، والخبرة الشعبية» (سعيد، 2004، صفحة 16.17). تستند هذه السرديات إلى مفهوم الحقيقة التاريخية، حيث تلعب دوراً محورياً في تشكيل وعي الجمهور المتلقي وتوجيه سلوكياتهم، من خلال تقديم صورة محددة عن الذات والآخر. في غالب الأحيان، تُظهر الذات بصورة متعالية، تعكس قوة الهيمنة، بينما تُصوّر الآخر بطريقة دونية، مما يعكس الصراع الدائم بين المركز والهامش. يتجلى هذا الصراع في الفضاء الثقافي والاجتماعي، حيث تسعى السرديات المركزية إلى تثبيت سلطتها من خلال تقديم نفسها كمصدر وحيد للمعرفة والشرعية، مما يُتيح لها تشكيل الانطباعات حول الهامش وإقصائه من عملية البناء المعرفي.

في هذا الإطار، يصبح التمثيل أداة قوية تُستخدم لتبرير الهيمنة وتكريس الفوارق الاجتماعية، مما يعزز من استمرارية هذا الصراع التاريخي. بينما تعزز السرديات المهيمنة صورة متعالية عن الذات، تُظهر الآخر من خلال تصورات نمطية وتبسيطية، فتُعمق الفجوة بين الجماعات وتُكرّس الانقسامات. ومع تزايد الأصوات البديلة التي تُطرح من قبل المهمشين، تُصبح عملية إعادة التمثيل والتاريخ وسيلة فعالة لكشف هذه الديناميكيات وكسر القيود التي فرضتها السرديات التقليدية.

وبذلك، يمثل هذا الفعل السردى عالماً معقداً من التفاعلات، حيث يستمر الصراع بين المركز والهامش في تشكيل الهوية الجماعية والفردية. من خلال هذه السرديات البديلة، يمكن للمهمشين استعادة وكالتهم، وتمثيل تجاربهم بشكل يعكس حقيقتهم، مما يُفضي إلى إعادة تشكيل الفهم العام للتاريخ والهوية في سياقات اجتماعية وثقافية متجددة، فتُعيد السرديات بهذا الشكل بناء صورة أكثر شمولية تعبر عن تعددية الأصوات وتجارب الإنسان المتنوعة.

في إطار هذا الاشتباك الاستيمولوجي القائم بين السيد والتابع، وبين المركز والهامش، تتجلى ديناميات القوة والتخيل من خلال هذه المواجهة، حيث تُحرك إما بروز سرديات بديلة وتجلياتها، أو تكريس سرديات مهيمنة تسعى إلى إعاقه ظهور سرديات أخرى. وهذا الأمر يبرز بشكل واضح في الأدوار الثقافية للسرد في السياقات الإمبراطورية، حيث تلعب السرديات دوراً حاسماً في

تشكيل الفهم العام وتحديد القيم والمعايير، مما يعكس كيفية تأثير السلطة في تشكيل الهويات وإقصاء الأصوات الهامشية، «وإن القوة على ممارسة السرد أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون أو تبرز لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة والامبريالية وهي تشكل إحدى الروابط الرئيسة بينهما والأكثر أهمية هو أن السرديات الجليلة الكبرى للتحرر والتنوير قد جندت الشعوب في المستعمر وحفزتها على الانتفاض وخلع نير الامبريالية وخلال هذه العملية هزت تلك القصص وأبطالها العديد من الأوروبيين والأمريكيين أيضا فقاموا هم بدورهم بالصراع من أجل سرديات جديدة للمساواة والروح المجتمعية الإنسانية» (سعيد، 2004، صفحة 58). تُصنف رواية "روائع ماري كلير" للحبيب السالمي ضمن السرديات البديلة التي تُعزز من فهم العلاقات الإنسانية بين المرأة والرجل، وتفتح آفاق الحوار بين الثقافات والأمم والحضارات. تسعى الرواية إلى تقديم رؤية تنبذ الخطابات التقليدية التي تُعزز الاستعمار والطبقية، مروجَةً لمفاهيم التعاطف والتفاهم. من خلال استكشاف تجارب شخصيات متنوعة، تبرز الرواية تعقيد العلاقات الإنسانية وقدرتها على تجاوز الانقسامات، مما يُساهم في بناء جسر من التواصل يعكس الغنى والتنوع في التجربة البشرية.

2. تقويض النموذج: من الرواية الحضارية إلى ما بعد الحضارية

تدور أحداث رواية "روائع ماري كلير" حول قصة حب تجمع بين محفوظ، الذي ينحدر من قرية "المخالفين" في تونس، وماري كلير، الفرنسية المقيمة في باريس. يحيا محفوظ حياة مزدوجة؛ إذ يعمل ليلاً في الاستقبال بفندق يملكه مهاجر جزائري، بينما يتولى نهاراً تدريس الأدب العربي كأستاذ متعاقد في الجامعة الفرنسية. حال دون عودته إلى تونس وجود خطر الحجز على جواز سفره، مما اضطره للاختيار بالاستقرار في فرنسا واحتضان تجربة جديدة مليئة بالتحديات والتفاعلات الإنسانية، «كنت أخشى إن عدت إلى تونس أن أبقى محبوساً هناك {...} فقد كانوا يحجزون جوازات كل الذين يعودون إلى تونس بعد فترة طويلة من الإقامة خارجها للتأكد من عقولهم لم تتلوث وأن حبه للوطن لا يزال صادقاً» (السالمي، 2008، صفحة 16)، ماري كلير، التي تبلغ من العمر في أوائل الثلاثينات، تشغل منصباً في دائرة البريد والبرق والهاتف. وقد كانت اختياراتها المهنية مدفوعة بشغفها القديم بالرسائل والبرقيات، الذي نما معها منذ طفولتها.

تجمعت الأقدار بينهما في أحد مقاهي باريس، حيث تبادلوا الابتسامات، مما أتاح له فرصة الانتقال إلى طاولتها. سرعان ما بدأ الحديث بينهما كخطوة أولى نحو تأسيس قصة حب تنطلق من تبادل النظرات، لتتطور العلاقة تدريجياً. وفي خضم هذه المشاعر المتزايدة، اتخذت ماري قراراً بالانتقال للعيش مع محفوظ، «أحب وجه ماري كلير لا بسبب الشفتين اللتين كنت أشتهيهما باستمرار، ولا لأنه ينطوي على قدر من الجمال، وإنما لأنه مدور أنثوي وخصوصاً مريح.. أحياناً أنظر إليه فأشعر كما لو أنني أنظر إلى وجه طفلة لا وجه امرأة تجاوزت الثلاثين» (السالمي، 2008، صفحة 16). تتسارع وتيرة العلاقة بينهما في جو من الحب والألفة، ولكن مع مرور الوقت، تبدأ بعض التوترات والفجوات في الظهور نتيجة لاختلافات كانت قد تم إرجاؤها في خضم نشوة المشاعر. رغم محاولتهما الدؤوبة لتجاوز هذه التحديات واستعادة التوازن، إلا أن هذه الاختلافات تُعصف بالعلاقة في النهاية، مما يؤدي إلى قرار الفراق.

تُعتبر رواية "روائح ماري كلير" للحبيب السالمي تجسيداً لرؤية أدبية متميزة تتباعد عن النمط السائد للرواية الحضارية، حيث تُسلط الضوء على علاقة الحب بين ماري ومحفوظ خارج نطاق الصراع الكولونيالي الذي غالباً ما يمثل محور الروايات التقليدية. في هذه الرواية، يتم تقديم الحب كقوة تجسد التفاعل الإنساني بعيداً عن النزاعات التاريخية، مما يسمح لبطل الرواية، محفوظ، بأن يخوض تجربة عاطفية في بيئة غريبة من دون أن تكون مشاعره محكومة بأعباء التاريخ الكولونيالي.

بدلاً من أن يكون محفوظ صورة للفحل الشرقي الذي يسعى للتأثر لجراح أمته، كما هو الحال في شخصيات مثل "مصطفى سعيد" في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، يظهر محفوظ كفرد يتجاوز تلك الصورة النمطية، مُعبراً عن ذاته في إطار أكثر حرية وانفتاحاً. إن علاقته بماري تعكس حياة طبيعية تسودها الألفة، حيث يتمكن من التفاعل مع المجتمع الفرنسي بطرق تعزز من تجربته الذاتية بعيداً عن أي عواطف كراهية أو أحقاد تاريخية.

عبر هذه الدينامية، تُظهر الرواية كيف يمكن للحب أن يكون أداة لتحرير الأفراد من قيود الاستعمار والعنف، وتؤكد على أهمية العلاقات الإنسانية في تشكيل الهوية الفردية. يُبرز السالمي من خلال سرد قصته كيف يمكن للرواية أن تساهم في إعادة تصور التجربة الإنسانية، مُعززاً فكرة أن الأفراد يمكنهم بناء روابط جديدة، تتجاوز الصراعات التاريخية، وتجعل من الحب جسراً للتواصل والتفاهم بين الثقافات. من خلال هذا التوجه، تُبرز الرواية نموذجاً مختلفاً، يفتح آفاقاً جديدة لفهم العلاقات بين الناس، بعيداً عن الإملاءات الثقافية والتاريخية التي غالباً ما تعيق التعبير الحر عن الذات.

3. تفكيك النسق الفحولي

يتجاوز الخطاب السرد في رواية "روائح ماري كلير" نموذج الفحولة الذي يوطر العلاقات بين الحضارات، والذي غالباً ما يحول العلاقة مع الغرب إلى تمثيل جنسي يتسم بتأنيث الغرب مقابل الذكورة المهيمنة للفحل الشرقي. هذه الدينامية، التي وقع في شباكها "مصطفى سعيد" بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، تعكس صورة مشوهة عن الصراع الثقافي. على النقيض من ذلك، ينحرف محفوظ عن هذا التمثيل التقليدي، ليقدم لنا صورة عن علاقة حب إنسانية تتميز بالتعاطف والعمق، تعكس تجربة فردية مشرقة وغير مشروطة بالصور النمطية السائدة. من خلال هذه الرؤية، يساهم محفوظ في تقديم سرد يتجاوز القوالب الثقافية، ليعيد تشكيل الفهم الإنساني للعلاقات عبر الثقافات، بعيداً عن ثقل الأيديولوجيات المهيمنة، « بما هو هبة المرء للذات ولجسده، هو شيء مقدس، مستبعد من التبادل السلعي، تفترض وتنتج علاقات دائمة وغير مؤقتة » (بورديو، 2009، صفحة 163). يطرح بطل رواية "روائح ماري كلير" تصورات ثقافية متميزة حول العلاقة بين المرأة والرجل، مستنداً إلى قيم المساواة والاحترام المتبادل والتراضي. يتجاوز هذا النموذج التقليدي السائدة، ليعكس انفتاحاً على العلاقات الإنسانية بعيداً عن سياسات الجنس والتباينات في المرجعيات الثقافية.

من خلال استحضار هذا الأفق الإنساني الذي تتجلى فيه علاقة الحب بين محفوظ وماري كلير، تُبنى العلاقة مع الآخر بعيداً عن سياقات الهيمنة الكولونيالية والذكورية. يسمح هذا التوجه بتفادي إعادة إنتاج نموذج الفحولة الذي كان يسود في

الروايات الحضارية، حيث يؤمن البطل بأن العلاقات الإنسانية ينبغي أن تُبنى على أسس من الاحترام والمساواة، « فالعلاقات بين الأمم والحضارات هي كالعلاقة القائمة واقعا بين الرجل والمرأة، علاقة قوة وتحكم وسيطرة، وبالتالي استسلام ورضوخ ومعاناة، فكان أن تبنى بدوره التصور الميتروبولي القائل بأن الثقافة مجاعة » (طرايشي، 1997، صفحة 16). من خلال هذا الوعي، يسعى البطل إلى التأثير لنفسه ورجولته وحضارته. لكن محفوظ يتجاوز هذا الإدراك النمطي الذي كان يسيطر على تصرفات بطل الرواية الحضارية، ويتعدى عن نموذج الفحولة، حيث يركز على حبه لماري كلير ويسعى لتحقيق سعادته الذاتية بعيداً عن صراعات الكولونيالية والحضارة. « ينبغي أن أقول هنا إنَّ حضور ماري كلير الدائم في بيتي جعلني في الشهور الأولى سعيداً إلى درجة كنت أخشى معها أن تتحول هذه السعادة إلى نقيضها » (السالمي، 2008، صفحة 20). سيمثل هذا التحول نقطة انطلاق جديدة في سياسات التمثيل، حيث ينتقل التركيز من العلاقات المجنسة إلى العلاقات المؤنسة، ومن السرديات الكبرى إلى النموذج الفردي في إطار الاستراتيجيات السردية. في ظل هذه الانزياحات الثقافية، يتم تفكيك الأنماط التقليدية للعلاقات الجنسية التي كانت تؤثر على وعي الذات بالآخر، مما يساهم في إعادة النظر في الصور النمطية المتداولة. يصبح السرد وسيلة للتغلب على التحيزات المتأصلة، حيث يُسلط الضوء على التجارب الفردية التي تعيد تشكيل الفهم الإنساني للعلاقات. بهذا، يتبلور نموذج سردي يركز على العمق الإنساني، معترفاً بالتعقيد والتنوع في العلاقات، مما يُثري الواقع ويعكس التفاعلات الأكثر دقة وثرأء بين الثقافات.

تقدم رواية "روائع ماري كلير" تمثيلات تتجاوز الصورة التقليدية للفحولة، حيث يُظهر بطل الرواية، محفوظ، تجربة إنسانية عميقة تتحدى الأسطورة المهيمنة التي تُسند التفوق الجنسي إلى البطل الفحل. ففي حين يتمحور نموذج الفحولة حول جسد قوي وموثوق، يجد محفوظ نفسه في موقف معقد نتيجة لهيئته النحيلة، التي تتعارض مع الحضور الطاعني لجسد ماري كلير. هذه الدينامية تخلق لديه شعوراً بالعقدة وعدم الثقة بالنفس، مما يجعله يسعى جاهداً لإرضاء ماري جسدياً، وهي صورة بعيدة كل البعد عن الفحل الشرقي الذي اعتدنا عليه في الروايات الحضارية، حيث يتسم بالسيطرة والتسلط.

ومع ذلك، فإن التجربة العاطفية بين ماري كلير و محفوظ، والتي تنعدم فيها الأيديولوجيات الكولونيالية، تُتيح لمحمود إعادة تقييم علاقته بجسده. من خلال هذه العلاقة الحب، يتوصل محفوظ إلى إدراك جديد مفاده أن الحب لا يتطلب القوة الجسدية أو التفوق، بل يُبنى على الثقة المتبادلة والاحترام. يتيح له هذا الفهم فرصة للتغلب على مشاعر النقص، ويمنح علاقته بماري أبعاداً إنسانية أعمق، بعيداً عن الصور النمطية التي لطالما سيطرت على التصورات حول الجنس والعلاقات. في هذا السياق، تتبلور رواية محفوظ كمثال يحتذى به للعلاقات الصحية التي تتجاوز القيود الثقافية والأيديولوجية، لتجعل من الحب تجربة متحررة غنية بالعمق الإنساني. « كأنَّ جسدي يولد من جديد .. إلا أنَّ المثير حقاً هو أنني صرت أرى جسدي بشكل مختلف.. قبل ذلك كنت معقداً بسبب هذا الجسد النحيل الرقيق الهش. لا أنتظر منه الكثير، ولا أعول عليه في اللحظات الحرجة والحاسمة » (السالمي، 2008، صفحة 83). فلا يجد محفوظ عيباً في البوح بهشاشة جسده، ولا يعتبر ذلك عيباً يستوجب التستر عليه « إلا أنَّ المثير حقاً هو أنني صرت أرى جسدي بشكل مختلف أتلسمه دون أي إحساس بالحرج. أنظر إليه بدون خجل، أتحدث عنه بجرأة » (السالمي، 2008، صفحة 84).

يمثل هذا التمثيل الثقافي الجديد تحدياً حقيقياً لنموذج الفحولة الجنسية الذي هيمن على الروايات الحضارية، حيث كان يُنظر إلى البطل كرمز للقوة والهيمنة على المرأة، متوهماً أنه في خضم صراع وجودي ضد الآخر. هذا النموذج، الذي يتسم بسلسلة

من التراتيبات الفحولية، يكرّس الفروق بين الذكورة والأنوثة، مما يرفع من قيمة الرجل في العلاقات الجنسية ويُعطيه صفات القوة والفاعلية، بينما يُصنّف المرأة ككائن ضعيف ومُستضعف.

ومع ذلك، تأتي علاقة ماري كلير بمحفوظ لتحديث انقلابًا جذريًا في هذا النظام الفحولي. في هذه العلاقة، تتخذ ماري كلير زمام المبادرة، حيث تصبح الفاعل الأساسي في سياق العلاقة الجنسية، بينما يقتصر محفوظ دور المتعلم الذي يُرشد نفسه على يد المرأة لاكتشاف عوالم الجسد. هذه الدينامية تُعيد تشكيل الفهم التقليدي للعلاقات، وتبرز أهمية المساواة والاحترام المتبادل بين الطرفين.

لقد كان محفوظ إيجابيًا ومتسامحًا في تجربة الحب بما فرضته عليه من خبرات جديدة، تعلم الكثير من ماري كلير كما تعلمت هي أيضًا منه الكثير من الخبرات، ولكن الأهم في هذه التجربة الثقافية، أن استجابته لهذا التغيير الجديد في حياته، كانت بالأساس استجابة عاطفية، بأثر سحر الحب الذي يفرض منطقته الخاص على الذات، بحيث لا تتحكم في مسار هذه العلاقة، وليس بدافع الثأر الحصري.

بهذا الشكل، تتحرر الرواية من قيود الأنماط القديمة، مُظهرة كيف يمكن أن تكون العلاقات قائمة على تفاعل إنساني عميق يُثري التجربة العاطفية. إن انخراط محفوظ في هذه الدينامية يُساهم في إعادة تعريف دوره، حيث يتجاوز الصورة النمطية للرجولة ويقبل التعلم من ماري كلير، مما يعكس تحولًا في السرد الثقافي يُبرز التنوع والتعقيد في العلاقات الإنسانية. « لا تقلق صغيري تقول لي.. وبعد لحظات تشرع في تقبيلي وتلمس جسدي.. تعال لا تخف، المسألة مسألة دربة وعادة.. تعال كل شيء سيصبح على ما يرام. تستفيق نفسي فأستجمع قواي وأعاود الكرة » (السالمي، 2008، صفحة 54).

يمثل هذا التحول تمرّدًا جذريًا على المفاهيم التقليدية للعلاقة الجنسية التي جسدها نموذج الفحولة الشرقي، كما تجلّت في الروايات الحضارية. فعلى سبيل المثال، نجد أن بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، مصطفى سعيد، يُعبر عن رؤية مشوهة تتصور أن جميع نساء الغرب متاحون له، وأن بشرتهم البيضاء تمثل دعوة مشتهة لتملكهن. يتفاخر مصطفى ببطلونه الجنسية ويختزل أجسادهن في صورة ميدان معركة، حيث يسعى لاستعراض فحولته وخلق وهم الانتقام لثقافته وحضارته.

بذلك، يُبرز هذا النموذج التقليدي من العلاقات الجنسية المفاهيم السلبية التي تعزز الهيمنة والتسلط، مما يجعل من الضروري إعادة تقييم هذه الصور النمطية والتحديات التي تطرأ على الأدوار التقليدية في سياق العلاقات الإنسانية، فجعله ذلك نموذجًا « للهيمنة والطبقية والتسيد، وجعله علامة على نسق ثقافي متسلط وذاتي، يقوم على الصوت الواحد القاطع مع إلغاء الأصوات الأخرى وعد الاعتداد بها أو سحقها في حالة المخالفة » (الغذامي، 1998، صفحة 159)، يقدم "الحبيب السالمي" رؤية مبتكرة تتحدى الميثاق التقليدي للعلاقات بين الجنسين، من خلال استخدام أسلوب بارودي ساخر يسلط الضوء على الفوارق النمطية. في هذا السياق، يتحول الجسد الذكوري إلى أداة للعرض والأداء، بينما يُمنح الجسد الأنثوي دورًا محوريًا وحيويًا. هذه الديناميكية تعكس انقلابًا جذريًا في سياسات التمثيل، إذ تصبح المرأة ليست مجرد كائن سلمي، بل الفاعل الرئيسي في العلاقة الإيروسية. ماري كلير تأخذ زمام المبادرة، وتصبح محورًا يدور حوله محفوظ، مما يُبرز قوة الشخصية النسائية وقدرتها على تشكيل الأحداث.

هذا التحول لا يُسهم فقط في إعادة تشكيل الفهم التقليدي للعلاقات، بل يمثل أيضًا ردًا نقديًا على السرديات الكبرى التي تجسد الفحولة الذكورية. إذ تُعيد رواية "روائع ماري كلير" صياغة السرد بطريقة تعكس تجارب إنسانية غنية، وتنقض على الأيديولوجيات التي تحصر المرأة في أدوار تابعة. من خلال هذا الخطاب، تُظهر الرواية كيف يمكن للذات أن تنتج خطابًا يتعارض مع الصور النمطية المهيمنة، مما يفتح أفقًا جديدًا لفهم العلاقات بين الجنسين، ويُبرز أهمية المساواة والاحترام المتبادل في بناء تجارب إنسانية أصيلة.

في خروجه على هذا النسق الفحولي، يبدو محفوظ على خلاف مصطفى سعيد في "موسم الهجرة إلى الشمال"، حريصا على حب ماري كلير ومشاعرها، شديد الحذر من كل ما قد يصدر عنه من سلوك يضايقها، وبالتالي فهو معني فقط بسعادته الصغرى، وغير معني مثل مصطفى سعيد بالتأثر الحضاري لأمته، وهذا ما يشكل تحول في تمثيل الآخر من العلاقات المجنسة إلى العلاقات المؤنسة على مستوى سياسات التمثيل، ومن السرديات الكبرى إلى النموذج الفردي على مستوى الاستراتيجيات السردية، وما يشكل من جهة أخرى تفكيك للنسق الفحولي الذي كرسه بشكل محكم الرواية الحضارية.

4. "روائع ماري كلير" .. اندماج الآفاق.

يمثل التخيل الروائي كأي شكل من أشكال الذاكرة «الفردية أو الجماعية، ساحة يصطرح داخلها أكثر من صوت، وأكثر من رؤية، وأكثر من سردية {...} فداخله تشتغل قوى لا تكفّ عن الصراع، وأنساق لا تكفّ عن التعاقب، وعلى هذا فإن هيمنة صوت أو رؤية أو نسق أو سردية ما، لا يعنى بالضرورة موت بقية الأصوات والرؤى والأنساق والسرديات المعارضة والبديلة» (كاظم، 2004، صفحة 76/75). تُعد رواية "روائع ماري كلير" للحبيب السالمي تمثيلًا سرديًا متفردًا يتسم بتعقيده وجماليته اللغوية، حيث تجمع بين تنوع الأصوات الثقافية والدينية والمذهبية والعرقية. في هذا السياق، تختلف الرواية بشكل لافت عن الروايات الحضارية التي غالبًا ما تقسم العالم إلى ثنائيات متعارضة، بحيث تضع الشرق في مواجهة الغرب أو تفصل بين العلم والتخلف. بينما تظل هذه الروايات محصورة في سرديات تركز الفروق وتُسهّم في تكريس الفجوات بين الهويات، تفتح "روائع ماري كلير" آفاقًا جديدة تعزز من قدرة الأدب على تمثيل التنوع الإنساني.

تعمل الرواية على تفكيك التصورات التقليدية حول العلاقات الثقافية، متجاوزة التصنيفات الضيقة التي تُسهم في تشكيل صورة مُشوّهة عن الآخر. من خلال شخصياتها وتفاعلاتها، تُعيد بناء العلاقة بين الذات والآخر، مُقدمةً سردًا يعكس التفاعل الإنساني العميق بعيدًا عن الصور النمطية التي لطالما طبعت الفهم السائد. فعلى الرغم من اختلاف خلفيات الشخصيات، تنجح الرواية في تقديم سردية غنية تُبرز القيم الإنسانية المشتركة، مُعززةً من مفهوم التعايش والتفاعل الإيجابي. هذا السرد، القائم على احترام التنوع، يُفكك الحواجز الثقافية والاجتماعية، ويستبدلها بنظرة أكثر شمولية تُعزز من الحوار والتفاهم. إن انفتاح الرواية على تعددية الأصوات يُمثل دعوة للقراء لتجاوز النزاعات التاريخية والتمييزات العرقية، والتوجه نحو بناء علاقات قائمة على الفهم والاحترام المتبادل.

بهذا الشكل، تساهم "روائع ماري كلير" في توسيع آفاق الأدب كوسيلة لتحدي التصورات المتجذرة وتعزيز مفهوم الإنسانية المشتركة، مما يجعلها تجسيدًا مثاليًا لإمكانية العيش المشترك في عالم متعدد الثقافات. إن هذا الإنجاز الأدبي لا يعكس فقط سعيًا نحو التغيير، بل يُبرز أيضًا قدرة الأدب على تقديم رؤى جديدة تسهم في تشكيل الوعي الثقافي والإنساني، مؤكدةً على أهمية الاستماع إلى جميع الأصوات والتفاعل معها. « فلا هي ترمى إلى تهذيب النفوس، ولا هي ترغب في الترويج لقيم نبيلة، ولا هي من الدعاة إلى وعي حضاري جديد {...} إنها تستثمر كل شيء، بما في ذلك الأحكام العنصرية المقيتة أو التصنيفات الجنسية القائمة على إيديولوجيات ذكورية مهترئة». (كراد، 2006، صفحة 196)

تتبع رواية "روائع ماري كلير" استراتيجية سردية مبتكرة تتجاوز التوترات والصراعات التقليدية، حيث تُبرز قيم التسامح والاحترام المتبادل وتبادل الخبرات، مما يعكس انفتاحًا على الحضارات المختلفة دون قيود تاريخية أو أعباء سابقة. تركز الرواية على الذات الإنسانية، متفادياً الفهم الكولونيالي الذي يعزل الذات عن الآخر، وتعمل على استكشاف الهوية الفردية والسعي لتحقيق السعادة الذاتية.

بدلاً من تصوير الآخر ككائن متباين يتطلب الانتقام أو التمييز، يتم تقديمه في "روائع ماري كلير" كجزء أساسي من الذات، يُساهم في تكامل وجودها ويعزز من شعورها بالسعادة. من هنا، يصبح الآخر شريكاً في تجربة الحياة، مما يوفر رؤية أكثر إنسانية وتوازناً للعلاقات الثقافية. هذا التوجه يُعزز من قدرة الرواية على تقديم سردية تُعبر عن التفاعل الإيجابي والاحترام المتبادل، مُعبّرةً بذلك عن إمكانية العيش المشترك في عالم متعدد الثقافات. فـ «بقوة الانتهاك الرمزي لفعل السرد تهاجر الحكاية في زمنية الاختلاف الثقافي، عابرة للحدود بين الثقافات والمرجعيات، لتعيش حياة مزدوجة، ولتختبر انزياحات استيطيقية وثقافية، من الذاكرة إلى الكتابة، ومن الأصل إلى المهجنة، ومن الإقامة إلى الهجرة، وفي صيرورة هذه الانزياحات عبر الثقافية تداخل سلطة المركز، وتحرر من سياسات الهويات القاتلة» (بوعزة، 2014، صفحة 166) تُعتبر هذه الآلية جزءاً من استراتيجية تحرير الذات من هيمنة النسق الفحولي الذي لطالما أثر في توجيه الخطاب السردى التخيلي في المدونات العربية. فعلى مر الزمن، أسهمت هذه الهيمنة في تشكيل صور نمطية مقيدة للأدوار الجنسية والهوية.

وعلى خلاف القراءة الفحولية تنتصر رواية "روائع ماري كلير" للمبدأ الأنثوي. ومع كل ميثولوجيا القوة الذكورية للبطل الفحل، تكشف سحر الحب في قلب علاقات الهيمنة بين الرجل والمرأة بما يمنحه من أفق مشترك بينهما مبني على علاقات تبادلية.

من خلال هذه الاستراتيجية، تسعى الرواية إلى إعادة بناء الهوية الفردية، مما يمكن الشخصيات من التعبير عن نفسها بحرية بعيداً عن الضغوط الاجتماعية. تُتيح هذه الآلية خلق فضاء سردي يتجاوز الحواجز التقليدية، ويطرح رؤى جديدة تعكس التجارب الإنسانية بعمق، موجهة نحو بناء علاقات قائمة على الاحترام والتفاهم.

خاتمة

يمكننا أن نستخلص من تحليلنا لتمثيلات الانزياح السرد في رواية "روائع ماري كلير" للحبيب السالمي، الذي ينتقل من نمط المجنس إلى المؤنس، مجموعة من النتائج الرئيسية. لقد سعى هذا البحث إلى الكشف عن تجليات هذا الانزياح في الخطاب السرد ما بعد الكولونيالي.

أولاً، تُظهر الرواية الحضارية كيف يخضع السرد والخطاب لمحددات تشفيرية ثنائية، تُفصل بين الشرق والغرب، حيث تُصوّر الأحداث والشخصيات ضمن سياق استعاري يكرس العلاقات الجنسية بين الحضارات. بينما تتجاوز "روائع ماري كلير" هذا الثنائي، مُتجهة نحو تشفير داخلي واستعارة ذاتية تُركز على العلاقات المؤنسة بدلاً من المجنسة، مُسلطة الضوء على تجربة الذات الإنسانية في تفاعلها مع الواقع بدلاً من تمثيلها في علاقتها بالآخر الإمبريالي.

ثانياً، ينبغي التأكيد على أن المقاربة هنا لا تُعبر عن تناقض صارخ بين الرواية الحضارية وما بعد الحضارية، بل تُبرز تطوراً يرتكز على جدل الاستمرارية والقطعية، وديناميات الاختلافات والامتدادات. تتطلب هذه الديناميات استراتيجيات جمالية جديدة وتحديات ثقافية مغايرة، مما يؤدي إلى انزياحات ملحوظة في السرد والتمثيل الثقافي.

ثالثاً، تُسلط الانزياحات الناتجة عن المتخيل الروائي في "روائع ماري كلير" الضوء على العلاقة بين الرجل العربي والمرأة الغربية بطريقة تعكس الواقع بشكل أكثر دقة. من خلال هذه الرواية، يتم كسر ديناميات القوة والعنف التي هيمنت على الروايات الكلاسيكية، مما يساهم في تحطيم الصورة النمطية التي تُظهر العربي كمتفوق جنسياً. علاوة على ذلك، تكشف الرواية عن سحر الحب الذي يتجلى في علاقات الهيمنة، حيث تُرسخ مبادئ تبادل الخبرات وامتزاج الآفاق، مما يعزز من فهم إنساني عميق لهذه العلاقات.

المصادر والمراجع:

- ___ بيار بورديو. (2009). الهيمنة الذكورية، المنظمة العربية للترجمة (ط1). (تر: سلمان قعفراني، المترجمون) بيروت، لبنان.
- ___ الحبيب السالمي. (2008). روائع ماري كلير (ط1). لبنان، بيروت: دار الآداب.
- ___ إوارد سعيد. (2004). الثقافة والإمبريالية (ط4). (تر: كمال أبو ديب) بيروت، لبنان: دار الآداب للنشر والتوزيع.
- ___ جورج طرايشي. (1997). شرق غرب (ط1). بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- ___ سعيد بن كراد. (2006). سيميائيات الصورة الإشهارية "الإشهار والتمثيلات الثقافية" (الإصدار د.ط). المغرب: إفريقيا الشرق.
- ___ عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.
- ___ عبد الله الغدامي. (1998). المرأة واللغة ثقافة الوهم "مقاربات حول المرأة والجسد واللغة (ط1). المغرب: المركز الثقافي العربي .
- ___ محمد بوعزة. (2014). سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف (ط1). الرباط، المغرب: دار الأمان.
- ___ نادر كاظم. (2004). تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط)، (ط1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.



- Bayār bwrdyw. (2009). al-haymanah al-dhukūrīyah,, al-Munazzamah al-‘Arabīyah lil-Tarjamah (Ṭ1). (tara : Salmān q‘frāny, al-Mutarjimūn) Bayrūt, Lubnān.
- al-Ḥabīb al-Sālimī. (2008). Rawā’ih Mārī klyr (Ṭ1). Lubnān, Bayrūt : Dār al-Ādāb.
- Nādir Kāzim. (2004). Tamthīlāt al-ākhar (Ṣūrat al-Sūd fī al-mutakhayyal al-‘Arabī al-Wasīt),) (Ṭ1). Bayrūt, Lubnān : al-Mu’assasah al-‘Arabīyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr.
- Iwārd Sa’īd. (2004). al-Thaqāfah wa-al-imbiryālīyah (ṭ4). (tara : Kamāl Abū Dīb) Bayrūt, Lubnān : Dār al-Ādāb lil-Nashr wa-al-Tawzī’.
- Jūrj Ṭarābīshī. (1997). Sharq Gharb (Ṭ1). Bayrūt, Lubnān : Dār al-Ṭalī‘ah.
- Sa’īd ibn krād. (2006). sīmyā’īyāt al-Ṣūrah al-ishhārīyah "al-ishhār wāltmthylāt al-Thaqāfīyah" (al-iṣdār D. Ṭ). al-Maghrib : Afrīqiyā al-Sharq.
- Abd al-Raḥmān Ibn Khaldūn. (1984). Tārīkh Ibn Khaldūn. Bayrūt : Dār al-Qalam.
- ‘Abd Allāh al-Ghadhdhāmī. (1998). al-mar’ah wa-al-lughah Thaqāfat al-wahm "muqārabāt ḥawla al-mar’ah wa-al-jasad wa-al-lughah (Ṭ1). al-Maghrib : al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī.
- Muḥammad Bū‘azzah. (2014). Sardīyāt thaqāfīyah min Siyāsāt al-huwīyah ilā Siyāsāt al-Ikhtilāf (Ṭ1). al-Rabāṭ, al-Maghrib : Dār al-Amān
- Nādir Kāzim. (2004). Tamthīlāt al-ākhar (Ṣūrat al-Sūd fī al-mutakhayyal al-‘Arabī al-Wasīt),) (Ṭ1). Bayrūt, Lubnān : al-Mu’assasah al-‘Arabīyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr.